

نقلنا عن مجلة الشهاب في جُزئها الثاني من المجلد الخامس عشر، الصادر في غُرة صفر 1358 هجرية الموافق ل 23 مارس 1939 للميلاد :

□ □ □ □ □ □ أيها الإخوان : جعلنا عنوان الخطاب «العرب في القرآن» وقلنا في أول كلمة منه أن العناية بالعرب حق على كل مسلم لارتباط تاريخهم بتاريخ الإسلام، فما هو حظ العرب من القرآن من الناحية التاريخية بعد أن سمعتم هذه التوجيهات العامة .

□ □ □ □ □ □ العرب مظلومون في التاريخ فإن الناس يعتقدون ويعرفون أن العرب كانوا همجا لا يصلحون لدنيا ولما دين حتى جاء الإسلام فاهتدوا به فأخرجهم من الظلمات إلى النور، هكذا يتخيل الناس العرب بهذه الصورة المشوهة ويزيد هذا التخيل رسوخا ما هو مستفيض في آيات القرآن من تقبيح ما كان عليه العرب لي حذرنا من جاهلية أخرى بعد جاهليتهم . والحقيقة التي يجب أن أذيعها في هذا الموقف هي أن القرآن وحده هو الذي أنصف العرب والناس بعد نزول القرآن قصروا في نظرهم التاريخية إلى العرب فنشأ ذلك التخيل الجائر عن المقصد، والتاريخ يجب أن لا ينظر من جهة واحدة بل ينظر من جهات متعددة وفي العرب ذواج تُجتبي ونواح تُجتنب، وجهات تُذم وتُقبح وجهات يُثنى عليها وتُمدح وهذه هي طريقة القرآن بعينها، فهو يعيب من العرب رذائلهم النفسية كالوثنية ونقائصهم الفعلية كالقسوة والقتل، ويؤوه بصفاتهم الإنسانية التي شادوا بها مدنياتهم المسالفة واستحقوا بها الن هوض بمدنية المدنيات .

□ □ □ □ □ □ ولندكر عادا فهي أمة عربية ذات تاريخ قديم ومدنية باذخة ذكرها القرآن فذكرها بالقوة والمصولة وعزة الجانب ونعى عليها المصافات الذميمة التي تنشأ عن القوة، قال تعالى : «(وأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة، أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة)» .

□ □ □ □ □ □ فالنظرة التاريخية المجرّدة في هذه الآية وفيما ورد في موضوعها تروينا أن عادا بلغت من القوة والعظمة مبلغا لم تبلغه أمة من أمة الأرض في زمنها حتى أن الله جل شأنه لم يتحد قولهم : من أشد منا قوة إلا بقوته الإلهية التي يذعن إليها كل مخلوق ولو كانت في أمة الأرض إذ ذلك أمة أقوى منهم لكان الأبلغ أن يتحداهم بها، وإن أمة تقول هذه الكلمة بحالها أو مقالها فهي أمة معتدة بقوتها وعظمتها، ومن هذه الآية وجدنا نستفيد أن عادا كانت أشد الأمم قوة وأن ما بلغت هذه الدرجة من القوة إلا بمؤهلات جنسية طبيعية للملك وتعمير الأرض وأن تلك المؤهلات فيها وفي غيرها من شعوب العرب هي التي أعدتهم للن هوض بالرسالة الإلهية، وإن القرآن لا يكر عليهم هذه المؤهلات وإن ما يكر عليهم لوأزمها وما يكر عليهم القوة والعظمة وإن ما يكر عليهم أن يجعلوها ذرائع للباطل والبغي ومحادثة الله بدليل قوله لهذه الأمة : ويزدكم قوة إلى قوتكم، فهو يضمن لهم أن هم إن آمنوا وعملوا الصالحات يزيد قوتهم تمكيننا وبقاء، ومحال أن يكر القرآن على الناس القوة وهو الداعي إليها والمُنفر من الضعف وإن ما شرع القرآن بجنب الدعوة إلى القوة أن تكون للحق وللخير وللرحمة والعدل .

□ □ □ □ □ □ وكذلك قوله تعالى : «(أتبنون بكل ربيع آية تعبتون - □ □ - وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون - □ □ - وإذا بطشتم بطشتم جبارين - □ □ - فاتقوا الله)» فإن هذه الآية - زيادة عن إفادتها لمعنى ما قدمناه - تكشف لنا ذواج من تاريخ هذه الأمة العربية ومبلغ مدنيتها وتعميرها فهي تدل على أن هم كانوا بصراء بعلم تخطيط المدن والابنية وهو علم لا يستحكم إلا باستخدام الحضارة في الأمة وما أخذ هذا من قوله : بكل ربيع، والآية في قوله آية هي بناء شامخ يدل على قوتهم أو هي آية هادية للساثرين وهي على كل حال بناء عظيم يدل على عظمتهم وقوتهم وما زالت عظمة البناء تدل على عظمة المباني. ولم يكر عليهم نبيهم نفس البناء الذي هو

مظهر القوة وإنّ ما أنكر عليهم الغاية المقصودة لهم من ذلك البناء المشّامخ فمحطّ الإنكار قوله : تعبثون , ولما شكّ أنّ كلّ بناء شامخ لا يكون لغاية شريفة محمودة فهو عبث ولهو وباطل . والمصانع يقول المفسرون أنّها مجاري المياه أو هي المقصور , وعلى القولين فهي دليل على معرفتهم بضنّ التعمير علما وعملا وبلوغهم فيه مبلغا عظيما فهي من شواهدنا على ما سقنا الحديث إليه .

□ □ □ □ □ □ ولكن لبت شعري ما الذي صرف المفسرين اللفظيين عن معنى المصنع اللفظي الاشتقاقي والذي أفهمه ولما عدل عنه هو أنّ المصانع جمع مصنع من الصنع كالمعامل من العمل وأنّها مصانع حقيقية للأدوات التي تستلزمها الحضارة ويقتضيها العمران , وهل كثير على أمة توصف بما وصفت فيه في الآية — أن تكون لها مصانع بمعناها العرفي عندنا ؟ بلى وإنّ المصانع لأوّل لزام من لوازم العمران وأوّل نتيجة من نتائجها , ولما أغرب من تفسير هؤلاء المفسرين للمصانع إلّا تفسير بعضهم للسائحين والسائحات بالمصائمين والمصائمات والمحق أنّ السائحين هم الرحالون والرواد للاطلاع والاكشاف والماعتبار والمقرآن الذي يحث على السير في الأرض والمنظر في آثار الأمم الخالية حقيق بأنّ يحشر السائحين في زمرّة العابدين والمحامدين والراكعين والساجدين فربّما كانت فائدة السباحة أتم وأعم من فائدة بعض الركوع والمسجود .

□ □ □ □ □ □ ولما يقولنّ قائل إذا كانت المصانع ما فهمتم فلماذا يُقبّحها لهم ويُنكرها عليهم فإنّه لم يُنكرها عليهم لذاتها وإنّ ما أنكر عليهم غاياتها وثمراتها فإنّ المصانع التي تُشيد على المسوسة والمقسوة لا تحمد في مبدأ ولا غاية , وأي عاقل يرتاب في أنّ المصانع اليوم هي أدوات عذاب لا رحمة ووسائل تدمير لا تعمير فهل يحمدها على عمومها وإنّ دلائل حضارة ومدنية كانت , ومن محامد المصانع أن تُشاد لنفع البشر ولرحمتهم ومن لوازم ذلك أن تُراعى فيها حقوق العامل على أساس أنّه إنسان لا آلة .

□ □ □ □ □ □ ( وإذا بطشتهم بطشتهم جبارين ) لا بدّ لكلّ أمة تسود وتقوى من بطش ولكنّ البطش فيه ما هو حق بأن يكون انتصافا وقصاصا وإقامة لثسطاس العدل بين الناس وفيه ما هو بطش الجبارين والجبار هو الذي يجبرك على أن تعمل بإرادته لا بإرادتك فبطشه إنّما يكون انتقاما لكبريائه وجبروته وإرضاء لظلمه وعُتوه وتنفيذا لإرادته الجائرة التي لا تُبنى على سُورٍ وإنّما تُبنى على التّشهي وهوى النفس لذلك لم ينقم منهم البطش لأنّه بطش وإنّما نقم منهم بطش الجبابرة الذي كلّ ظلم , وفي المقرآن ما هو كالتمّة لبحثنا عن حضارة العرب وكالعلاقة لحضارة عاد بعينها وهي حكاية عاد إرم ذات العماد .

□ □ □ □ □ □ فهذا الوصف البليغ الذي نقرأه في سورة الفجر صريح بالفاظه ومعانيه في أنّه وصف لحضارة عمرانية لا نظير لها , فالعماد لا تكون إلّا في المقصور والابنية الباذخة والمدن المخططة على نظام محكم , وقد قال تعالى وهو العالم بكلّ شيء أنّه لم يخلق مثلها في البلاد ومدينة هذا وصفها لا تشيدها إلّا أمة لا نظير لها في القوة وآثار الحضارة يتبع بعضها بعضا في الضخامة والعظم والوصف المقرآني لها وإن سيق للاثعاط بعاقبتهم يدلّ الباحث التاريخي على أنّهم بلغوا في الحضارة غاية لا ورائها , وهم أمة عربية فهذه المدينة شيدت في جزيرة العرب لا محالة , وإنّ الأقرب في التذكير بهم والماتعاط بمصيرهم أن تكون الرؤية في قوله تعالى : ألم تر علمية لأنّ التذكير عام لمن تتيسر له رؤية العين وللمن لم تتيسر له , ولو ائتمرت الأمم الإسلامية بأوامر المقرآن لنشأ فيها رواد يرودون الجزيرة ويجوبون مجاهلها ولو فعلوا لأمكن أن يعثروا على آثار هذه المدينة في أرض عاد وهي معروفة ويجمعوا بين الرؤية البصرية والرؤية العلمية وبين العلم والماتعاط , وإنّنا لا نعبأ في مقام البحث العلمي بما حف هذه الحكاية من أساطير , ولما

بما وقع فيه شيخ المؤرخين ابن خلدون حينما تعرض لنقض تلك الأساطير . □ □ □ □ □ □ له بقية □ □ □ □ □ □